

عِنَاقُ النرجيلة والقهوة والقلم



محمد عبدالرحيم الخطيب

«المقاهي» في معظم المدن العربية ملمح حضاريٌّ لا يمكن إغفاله أو تجاوزه عند التأريخ لحيوات كثيرٍ من هذه المدن. وإذا صحت الرواية التي تقول إن مشروب «القهوة لم يدخل مصر إلا في القرن السادس عشر الميلادي» (1) وتحديدًا عام 1591 م؛ فإن الراجح هو أن تسمية «المقاهي» لم تُعرف إلا في أُخريات ذلك القرن أو في بدايات القرن السابع عشر الميلادي، وصارت تُطلَق على تلك المجالس والأماكن التي كان العرب يتخذونها ويفيئون إليها طلبًا للراحة والهدوء والسمر، لا سيما في أماسيهم.



في أحد المقاهي العراقية

وبعد ظهور التدخين في مصر، الذي يُقال إنه كان عام 1012 هـ، بدأت عادة التدخين تتسلل إلى المقاهي، فصار من الخدمات التي تُقدَّم للزبائن.

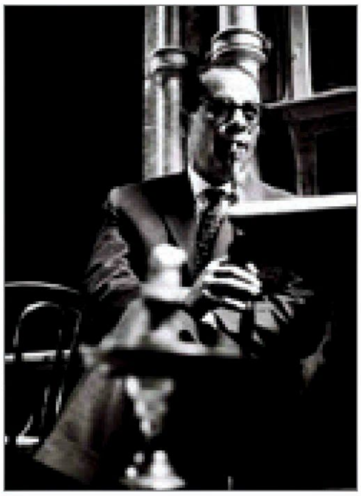
ولا يعنينا الدخول في تفاصيل الخلاف حول حرمة شرب القهوة أو حلّها لدى ظهورها في اليمن والحجاز، ثم انتقالها إلى مصر، وكذا الخلاف حول حرمة التدخين من عدمها، أو اختلاف شكل المقاهي في بدايات ظهورها عما هي عليه الآن؛ فالذي يعنينا هو تلمُّس الدور الثقافي للمقاهي في المجتمعات العربية. فإذا كانت الوظيفة الأولى للمقاهي -ولا تزال- هي كونها مُلتَمَسًا للهدوء وصفاء الذهن، وملاذاً من ملاحقة المشاكل والضغوط اليومية؛ فإن لها دورًا ثقافيًّا بدأ يتشكل منذ القديم وإلى أن صار مكتمل الملامح مع بدايات القرن العشرين. فمع ازدياد المقاهي وانتشارها وتنافسها فيما بينها، صار بعضُ أصحابها يستقدمون رُواة القصص والسير الشعبية لقصِّ حكاياتهم على أسماع رواد هذا المقهى أو ذاك، وهو دور ثقافي صار للمقهى من غير إرادة أو تعمُّد. وبعض هؤلاء الرواة يُعرفون بـ«الهلالية» لتخصصهم في سيرة أبي زيد الهلالي، وبعضهم يُعرفون بـ«الظاهرية» نسبة إلى الظاهر بيبرس. وكانت القصص التي تُروى بالمقاهي كثيرة، وأهمها: «قصة سيف بن ذي يزن، وألف ليلة وليلة، وسيرة عنترة العبسي. وكان المنشدون



كما استهوت النرجيلة و(الجوزة) الشعبية في مصر بعض الفنانين

يتخذون آلات الطرب كالربابة والعود، وقد قضى الراديو على هذه الطائفة قضاءً مُبرمًا» (2).

ويبدو أن الأمر في المقاهي لم يقف عند هؤلاء الرواة؛ بل تعداه إلى فنون أخرى، وفي ذلك يقول عبدالمنعم شميس: «وكانت هذه القهاوي لا تخلو من فن من الفنون السائدة في المدينة، وهي السير الشعبية التي يرويها شاعر الربابة، والرقص من العوالم، والغناء، وألعاب خيال الظل، أو فنون الأُدباتية التي يقدمها بعض أصحاب المواهب الأدبية من المهرجين بأسلوب زجلي مرتجل يتناول الحياة العامة بالسخرية والنقد والتجريح، في كثير من الأحيان. وكانت تبدأ بجملة مشهورة يقول فيها الأدباء عادة: «أنا الأديب الأُدباتي»، ثم يروي بعد ذلك حكايته على أنغام طبلة صغيرة يدق عليها بقطعة من الجلد. وكان عبدالله النديم أشهر أدباتي في مصر في الجيل الماضي... ومن الفنون القولية التي كانت معروفة في قهاوي القاهرة فن القافية، وهو فن مباراة كلامية بين شخصين يطلب أحدهما من صاحبه أن يدخل معه في قافية، وعندما يقول الأول كلامًا لاذعًا في وصف صاحبه يقول له الشخص الآخر كلمة (اشمعنى).. فيرد عليه الآخر ردًّا لاذعًا» (3).



نجيب محفوظ يدخن النرجيلة

وقد ذكر علماء الحلمة الفرنسية أن من فنون وآداب المقاهي في مصر: الأغنيات الملحنة، والعوالم والغوازي، والملاحم الشعبية الشعرية التي يؤديها رواة الربابة، والمدائح النبوية في المناسبات الدينية. كما عرفت بعض المقاهي فن «خيال الظل» و«الأراجوز» و«الحكواتي»، لا سيما في بلاد الشام التي انتشرت فيها مهنة «الحكواتي» وكانت لها تقاليدها المتبعة إلى وقت ليس ببعيد.

ومع بدايات القرن المنصرم، رأينا أن المقاهي صارت ملتقى للفنانين والمبدعين، وصار بعضهم يتخذها مكانًا لجلساتهم الثقافية والفكرية، فضلاً عن اتخاذها مكانًا للإبداع والتأليف من قبل بعض الكُتَّاب، كما صار المقهى -كذلك- مكانًا للنقاش حول كثيرٍ من قضايا الوطن العربي وآماله وآلامه، سواء بين عامة رواده أو بين خاصّتهم من المثقفين والكتاب والمبدعين، «فـ(المقهى الأدبي) -وعلى امتداد الأجيال- عاش

مـع القضايـا العربيـة، وعكـس ملامـح العصـر، وفيـه وُضعـت بعـض الخطـوط مـن حضارتنـا، وأفضـى الأدبـاء فيـه بآرائهـم فـي الكثيـر مـن القضايـا والمشـكلات التـي يُوليهـا الـرأي العـام أهميـة كبـرى» (4).

مقاهي الأدب في القاهرة

وقـد زخـرت القاهـرة فـي النصـف الأول مـن القـرن العشـرين بالعديـد مـن المقاهـي الشـهيرة، ومنهـا: «مقهـى أفنديـة» وكان بالقـرب مـن الجامـع الأزهـر، وقـد أشـار إليـه عبداللـه باشـا فكـري فـي بعـض رسـائله. و«مقهـى نوبـار» الـذي كان ملتقـى الفنانيـن والمطربيـن، ومنهـم: عبـده الحامولـي، وباسـيلي بـك عريـان، وخليـل مطـران. و«مقهـى السـنترال» الـذي صـار «كازينـو الأوبـرا» حاليًـا، وفيـه كانـت تُعقـد نـدوة أدبيـة كل يـوم جمعـة لنجيـب محفـوظ. وفـي العتبـة كان «مقهـى متاتيـا» وكان يرتـاده: جمـال الديـن الأفغانـي، والإمـام محمـد عبـده، وسـعد زغلـول، وإبراهيـم الهلبـاوي، وعبـاس العقـاد، وإبراهيـم المازنـي، والشـيخ فهيـم قنديـل. وفـي شـارع محمـد علـي يوجـد «مقهـى التجـارة» ومعظـم رواده مـن الموسـيقيين العامليـن بالفـرق المعروفـة فـي هـذا الشـارع. وفـي نهايـة هـذا الشـارع «مقهـى الكتبخانـة» وكان مـن رواده: حافـظ إبراهيـم، والشـاعر محمـد عبدالمطلـب، والشـيخ عبدالعزيـز البشـري، والشـيخ حسـن الآلاتـي. وفـي حـي الحسـين «مقهـى الفيشـاوي» الشـهير، ومـن أشـهر رواده نجيـب محفـوظ. أمـا «قهـوة الفـن» فكانـت تقـع فـي مواجهـة مسـرح رمسـيس، ويرتادهـا غالبًـا البائسـون مـن الفنانيـن والكومبـارس. ولا يـزال «مقهـى ريـش» مـن بيـن المقاهـي الأشـهر بالقاهـرة.

مثقفو تونس.. والمقاهي

ويحدثنـا الكاتـب التونسـي رشـيد الـذوادي عـن عـددٍ مـن المقاهـي الثقافيـة التـي انتشـرت فـي بـلاده، ومنهـا تلـك المقاهـي التـي كانـت قريبـة مـن «جامـع الزيتونـة»، وعلـى رأسـها «مقهـى القشاشـين» الـذي كان رائـدًا فـي هـذا الأمـر؛ إذ كان يؤمُّـه عـدد مـن المشـاهير فضـلاً عـن طـلاب الزيتونـة وعـدد مـن الأدبـاء والشـعراء، ومنهـم: شـاعر تونـس الكبيـر محمـد الشـاذلي، والبشـير الفورتـي، والمختـار الوزيـر، وعبـد الحميـد المنيـف، ومحمـد العروسـي المطـوي، وغيرهـم. كمـا اشـتُهرت مقـاهٍ أخـرى فـي تونـس



رواد المقهى القديم يتحلقون حول الحكّاء لتسُّمع حكاياته



في أحد المقاهي الخليجية القديمة

مثـل «مقهـى المرابـط» و«مقهـى زمـارة» اللذيـن كانـا ملتقـى لـرواد الأغنيـة التونسـية والموسـيقيين. و«مقهـى الهنـاء» بـبـاب الجديـد الـذي حفـل بأسـمار الأدبـاء: البشـير الفورتـي، ومحمـد العربـي الكبـادي، ومحمـد المرزوقـي، والهـادي العبيـدي، وعبدالمجيد بنجـدو. كمـا اشـتهرت مقاهـي: «العيـاري» بـبـاب الجديـد، و«الأندلـس» بنهـج جامـع الزيتونـة، وفيـه يقـول الروائـي شـكري المبخـوت: «يضـج المـكان فـي الذاكـرة بحكايـات لا تنتهـي، ولكنهـا تعـود. فلـو كنـا نعلـم لتوقفنـا حتـى نمتلـئ باللحظـة التـي أحسسـنا فيهـا فجـأةً بأننـا فـي أقصـى درجـات الانسـجام والتـوازن. ولـو كنـا نعلـم أن الحكايـة جميلـة -كمـا نتذكرهـا الآن- لاسـتحضرنا التفاصيـل، ودققنـا الوصـف، وفرّعنـا الأحـداث، وعلقنـا، وشـرحنا، حتـى لا تنتهـي الحكايـة. لـو كنـا نعلـم أن بقايـا (البـن) فـي اللسـان سنشـتاقها، وأن (ورقـة النعنـاع) فـي كأس الشـاي الأخضـر، وقـد علقـت يومًـا بالشـفة السـفلى سنشـتهيها؛ لمـا لفظنـا الورقـة بطـرف اللسـان، ولمـا شـربنا المـاء مـن ذلـك الإنـاء مركّزيـن علـى مـا خُـطَّ داخلـه بالشـفاء.. لـو كنـا نعلـم» (5).

أمـا «مقهـى تحـت السـور» الكائـن بربـض بـاب سـويقة فـي تونـس العاصمـة فقـد اكتسـب شـهرة واسـعة فـي ثلاثينيـات وأربعينيـات القـرن الفائـت، وكان منتـدى للصفـوة مـن الأدبـاء والمثقفيـن والفنانيـن، وفيـه كانـت تُعقـد مجالـس أدبيـة منتظمـة تُعـرض فيهـا الأعمـال الأدبيـة المتنوعـة، وقـد أُطلِـق علـى رواد هـذا المقهـى مـن الأدبـاء (مجتمـع العيـون) لابتـداء أسـمائهم أو ألقابهـم بحـرف العيـن، ومنهـم: عبدالعزيـز العـروي، وعلـي الدوعاجـي، والهـادي العبيـدي، ومحمـد العربـي، وغيرهـم.

على ضفاف نهر بردى

أمـا فـي الشـام، فقـد راحـت المقاهـي تنتشـر علـى ضفـاف فـروع نهـر بـردى مـع مطلـع القـرن العشـرين، وقـد اشـتُهر شـارعا «العابـد» و«بغـداد»

بالمقاهي الكثيرة. ومن بين المقاهي العديدة التي كان لها إسهام ثقافي مهم «مقهى الكمال» بدمشق، وكان موئل عدد من الأدباء في أواخر العشرينيات ومطلع الثلاثينيات، أهمهم العراقي أحمد الصافي النجفي الذي كانت أحاديثه وأشعاره محورًا لكثير من جلسات هذا المقهى. كما كان هناك «مقهى الرشيد»، وكان يُعرف قبل ذلك بمقهى «اللونا بارك»، وقد ظل هذا المقهى حتى خمسينيات القرن العشرين، وكان مسرحًا صيفيًّا يُقدم أيضًا الأفلام السينمائية، وكثيرًا ما تحول مسرحه إلى منبر للحفلات الخطابية السياسية والانتخابية. أما «مقهى الطاحونة الحمراء» فكانت صباحاته تكتظ بالصحفيين العاملين في الصحف اليومية. في حين يلتقي قدامى السياسيين والوزراء بـ»مقهى البرازيل» الذي يقع في شارع «بورسعيد» بدمشق، وقد تردد عليه -كذلك- عدد من كبار رجال الأدب والفكر الذين عاشوا في دمشق، ومنهم: سعيد الجزائري، د. بديع حقي، نسيب الاختيار، د. سامي الدروبي، د. شاكر مصطفى، وغيرهم. هذا بالإضافة إلى عدد من المقاهي التي اشتهرت بتردد الأدباء والفنانين والسياسيين عليها، ومنها: مقهى الهافانا، ومقهى الكمال الجديد.. إلخ.

مقاهي بغداد.. حاضنة التجديد

أما في بغداد فكان لشارع الرشيد، الذي افتُتح في عهد الوالي العثماني خليل باشا عام 1916 م، حصة الأسد من المقاهي الأدبية الشهيرة؛ إذ قامت على جانبيه كلٌّ من مقاهي: الشابندر، والزهاوي، والبرلمان، والبلدية، والمقهى الفني أم كلثوم. وكان لهذه المقاهي الأدبية دور سياسي بارز يتمثل في مناهضة الاستعمار البريطاني والتصدي لمخططاته، وكان شارع الرشيد ومقاهي منطقة «الحيدر خانة» -تحديدًا- مركز تجمعات المثقفين والسياسيين وتظاهراتهم المعارضة للعثمانيين والاستعمار البريطاني، وكان من أبرز الشخصيات الثقافية التي غذّت الحماسة الوطنية وألهبتها مع بدء ثورة 1920 الشاعر والخطيب محمد مهدي البصير. كما شهد شارع «الحيدر خانة» و»مقهى عارف أغا» عددًا من الاحتفالات التي كان يُحييها الشاعر معروف الرصافي، لتتحول إلى تظاهرات تخرج من المقهى لتنضم إلى الحشود، وفيها يشترك عدد من أبرز الوجوه الوطنية والثقافية في العراق. وقد شهدت هذه المقاهي انطلاقة التظاهرة الكبيرة عام 1948 م لإسقاط حكومة صالح جبر، ملغية معاهدة جبر بيفن المبرمة بين العراق وبريطانيا.

وإضافة إلى هذا الدور السياسي البارز للمقاهي البغدادية، فقد كان لها دور أدبي كبير؛ فبين جدرانها خرجت المحاولات الأولى لتطوير القصيدة العربية، وكذا التجديد لدى الجماعات التشكيلية، ومعارض


مقهى الشابندر بالعراق



مقهى الزهاوي في العراق

الرسم؛ فهي بحق حاضنة لكثير من محاولات التجديد الكبيرة في الأدب العربي.

ومن أشهر مقاهي بغداد «مقهى الزهاوي»، ويقع في شارع الرشيد على رأس جسر الشهداء الذي يربط بين جانبي بغداد: الكرخ والرصافة. وكان ملتقى النخبة الثقافية، وعلى رأسهم: الشاعر والفيلسوف جميل صدقي الزهاوي، والشاعر معروف الرصافي، وشاعر العراق محمد مهدي الجواهري، وعالم الاجتماع علي الوردي. وقد شهد هذا المقهى سلسلة المقالات التي كتبها الزهاوي في نقد شعر عباس محمود العقاد، وتناقلتها الصحافة العراقية والمصرية تحت عنوان المعارك الأدبية في الثلاثينيات، كما شهد المقهى حلقات السجال والمناقشة الطريفة التي انعقدت بين الشاعرين الزهاوي والرصافي، وشغلت الناس بأجوائها، وانقسم جمهور المقهى حول الشاعرين. لكن الرصافي لم يلبث أن ترك هذا المقهى، منتقلًا إلى «مقهى عارف أغا» الذي صار مقرًّا جديدًا له، ومعه مريدوه الذين أحاطوا به. وبعد سنوات جرت مصالحة بين الشاعرين بحضور أعداد غفيرة من الأدباء والمثقفين والسياسيين (6).

المقاهي البغدادية حاضنة لكثيرٍ من محاولات التجديد الكبيرة في الأدب العربي

ومن المقاهي الأدبية الشهيرة في بغداد: مقهى حسن عجمي، ومقهى الواق واق، ومقهى البرازيلية، ومقهى ياسين، ومقهى البلدية، ومقهى البرلمان، ومقهى الرشيد.

أدباء السودان والمقاهي

في فترة الخمسينيات والستينيات كان للمقاهي دور في الحراك الثقافي بالسودان، وكان من أشهر تلك المقاهي وأبرزها أثرًا في الحركة الأدبية والفنية في السودان مقاهي أم درمان، ومن أهمها: «مقهى ود الأغا»، ومن أشهر رواده: مصطفى حامد الأمين، ومحمود إدريس، وإسماعيل خورشيد، والطاهر حسن السني، ومصطفى ركابي. وكان

مصطفى حامد الأمين يثير القضايا الفلسفية والدينية، في حين كان محمود إدريس ميالًا إلى السياسة، وخورشيد مشغول بقضايا المسرح والشعر الغنائي. و»مقهى أحمد خير»، وكانت تعقد فيه ندوة أدبية مساء كل ليلة يحضرها الشاعر السوداني أحمد محمد صالح، والشاعر إبراهيم العبادي.. إلخ. و»مقهى جورج مشرقي» ويقع في وسط سوق أم درمان. بالإضافة إلى مقاهي: «ود الحسين»، و»أولاد الفكي»، و»الحلواني».

كما اشتُهر بين المقاهي السودانية بالخرطوم «مقهى المحطة الوسطى»، ومن الأدباء السودانيين الذين كانوا يرتادون هذا المقهى: الأديب مبارك إبراهيم رائد الجيل الثاني لحقيبة الفن بعد علي شمو، وصلاح أحمد محمد صالح. و»مقهى شناكة»، ومن أبرز رواده الفنانان إبراهيم الكاشف وحسن عطية، والصحفي رحمي محمد سليمان، وعثمان المشلي صاحب النكات المضحكة الذي يُعتبر من أشهر ظرفاء الخرطوم.

ويُعتبر «مقهى أتينيه» من أشهر مقاهي الخرطوم، وفي الستينيات والسبعينيات أضحى مكانًا راقيًا يرتاده مشاهير المجتمع، لا سيما الساسة وأهل الأدب والفن والصحافة ورجال الأعمال.

سميح القاسم: لعل «المقهى الأدبي» هو أفضل الأساليب لتنظيم الأدباء بفوضى محببة ومبدعة!

لبنان.. سحر الشرق

منذ ثلاثينيات القرن العشرين عرفت مدن لبنانية عديدة المقهى الأدبي، وفيه دارت نقاشات وحوارات متعددة في كل قضايا الأدب والفكر والثقافة. وأبرز مقاهي الأدب اللبنانية تقع في مدينة بيروت، وأهمها: «مقهى محلة الزيتونة» ويقع على شاطئ بيروت، وممن تردد عليه: بشارة الخوري، وشلبي الملاط، وأمين الريحاني، وجرجي سعد، وجميل معلوف، ومحيي الدين الخياط.. إلخ. و»مقهى الخياط» ويقع بساحة الشهداء، وممن تردد عليه: أمين نخلة، ووديع عقل، وميشال أبو شهلة، وإلياس أبو شبكة، وغيرهم. و»مقهى فيصل» الواقع بمنطقة رأس بيروت، وفيه يجلس أساتذة الجامعة الأمريكية، وعدد من الشعراء والأدباء على رأسهم: خليل حاوي، ومحمد الماغوط، وميشال أبو جودة. و»مقهى الهورس شو» ويقع بمنطقة الحمراء، وفيه جلس: أنس الحاج، وشوقي أبو شقرا، وأنطوان كرباج، والرسام رفيق أبو شرف. وحين أُغلق هذا المقهى بكاه أدباء لبنان.



كافيه ريش بمصر



قهوة الفيشاوي بحي الحسين بالقاهرة

مقاهي المغرب.. فسيفساء أدبية

تعددت المقاهي الأدبية في المغرب، ويأتي على رأسها «مقهى باليما»، ويقع بشارع محمد الخامس بالرباط، ومن بين مَنْ تردد عليه من الأدباء في الجلسات المسائية: محمد بن العباس القباح، ومحمد الصباغ، والعربي الخطابي، والحاج محمد باحنيني. وهناك «مقهى البستان» بالرباط، وتأسس في الثمانينيات، وتردد عليه أساتذة جامعات وأدباء منهم: عبدالعالي الوديغري، د. قاسم الحسيني، محمد الخمار، أحمد المجاطي.

ومن المقاهي الأخرى: «مقهى الجمرة» بالرباط. و»مقهى المصرف» بمراكش. و»مقهى جنان السبيل» بفاس. و»مقهى النادي الثقافي» بتطوان. و»مقهى الحافلة» بطنجة. و»مقهى البدوي» بوجدة.

مؤسسة ثقافية غير رسمية

ومن اللافت في هذا السياق ما كتبه سميح القاسم مقترحًا اتخاذ المقاهي بديلًا للمؤسسات الثقافية الرسمية التي يحدث في داخلها التناحر والصراع على المناصب، وغير ذلك من أمور تُبعد المؤسسة الثقافية عن دورها، يقول في سياق حديثه عن تجربته في رئاسة اتحاد الكتاب الفلسطينيين: «وقد دفعتني تجربتي الشخصية إلى استنتاج قد يبدو متطرفًا: لعل «المقهى الأدبي» هو أفضل الأساليب لتنظيم الأدباء بفوضى محببة ومبدعة! فالمقهى الأدبي لا يتطلب بطاقات عضوية مُوَقَّعًا عليها، ولا يستدعي العودة إلى الدستور للتأكد مما إذا كان الرئيس أو الأمين العام هو الذي يوقِّع على البطاقات، ولا يفرض دفع اشتراكات أكثر من ثمن فنجان القهوة أو كأس القهوة البابلية، ولا يتطلب عقد مؤتمرات واجتماعات» (7).

وهذا المقترح الذي لا يخلو من طرافة يتناغم من دعوات بعض المثقفين بضرورة التوسع في الأنشطة الثقافية للمقاهي، في ظل محاولات «الدولة» جعل الثقافة منتجًا خاضعًا «للرسمية» بعد احتكار المؤسسات الثقافية.